آفاق الحضارة الإسلامية، أكاديمية العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية
السنة الحادية والعشرون، العدد الثاني، الخريف والشتاء ١٤٣٩-١٤٤٠ هـ .ق، ١١٧-١٤٦

تجليات الثورة والمقاومة في شعر عبدالعزيز المقالح

أمير فرهنگ‌نيا*

الملخص

يعتبر عبدالعزيز المقالح بصفته شاعراً وناقداً أكاديمياً وأحد رموز الشعر اليمني المعاصر خاصة والشعر العربي المعاصر عامةً حيث تولى مسؤولية بارزة ونشيطة في حركة الأدب والنقد وقام بدور فعال في الثورة اليمنية والمقاومة الشعبية وأخذ الشعر سلاحاً للدفاع عن شعبه ووسيلةً للتعبير عن معاناته وآلامه بقيم جمالية وشعرية رفيعة المستوى سواءً كان يعيش في اليمن وصنعاء أو كان مغترباً في العواصم العربية كالقاهرة حيث تتسم قصائده بالصراحة والمباشرة وقليل من الغموض. دخل المقالح في قضايا الوطن اليمني والأمة العربية وعاش كثيراً من مصائبهم وله دور كبير ونشيط وفعال في شحذ الهمم وتحفيز النفوس على النضال في وجه الأعداء والمحتلين مستشرفاً مستقبلاً رائعاً وقريناً بالحرية والأمان لأبناء شعبه. فالقارئ لشعره يجده كأنه تنبّأ في دواوينه الشعرية ما يعانيه الشعب اليمني من اختناق وعدوان وحرمان وتخلّف وأمية وجهل. تسعى هذه الدراسة إلى إلقاء الضوء على شعر المقالح المقاوم والتركيز على أهم محاور المقاومة والثورة وعناصرها في شعره وفقاً للمنهج الوصفي التحليلي ومن أبرز ما توصل إليه المقال أنه المقالح له تواجد في الأوساط اليمنية إذ يهتم بقضايا اجتماعية كالفقر والحرمان مؤكّداً على القضية الفلسطينية وله نظرة قومية تحاول في توحيد كلمة الشعب اليمني والأمة العربية وفي هذا الصدد كثيراً ما يلاحَظ على أنه قام بتوظيف التراث والشخصيات الأسطورية والشعبية كما يتجلى التركيز على كثير من الأمكنة في شعره.

الكلمات الرئيسة: المقاومة، الوطن، القومية، النضال، الشهيد، عبدالعزيز المقالح.

---

* أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الشهيد بهشتي، A_Farhangnia@sbu.ac.ir
تاريخ الوصول: ١٣٩٧/٧/١١، تاريخ القبول: ١٣٩٧/١٠/٣٠

١. المقدمة

يدعو شعر المقاومة إلى الرفض والتحدي والصمود في وجه الاحتلال والاستعمار ويحرّض المناضلين والنفوس على الاستمرار في المقاومة والكفاح نجد شعراء اليمن يقتلون ويموتون، أو يسجنون ويعذبون. ذلك أن الكلمة الجريئة التي تدمغ جباه الطغاة لا تذهب بلا ثمن (نشاوي، ١٩٨٤: ٣٤٧). عالمياً يدرك شعر المقاومة التزامه بحركة الثورة في العالم التي هي في نهاية المطاف المناخ الذي تنمو داخله الحركة الثورية المحلية تؤثر به وتتأثر منه (كنفاني، ١٩٦٨: ٦٣). إن شعر المقاومة في تعريفه الجذري العميق هو كلّ شعر جميل وإذا لم نحصر مفهوم المقاومة في مقاومة المحتل الغاصب فحسب، فإن كلّ شاعر مبدع خلاق هو – بذلك المعنى الأشمل – شعر مقاومة من الطراز الأرفع: مقاومة القبح والظلم والجبر والكبت والقهر والاختلال والشر في كلّ صورة وفي كلّ مكان. وعلى هذا فسوف يبقى من شعر المقاومة الفلسطيني – وغير الفلسطيني – كل شعر مبدع راق ارتفع عنالمناسبة العابرة أو ارتفع بها وتسامق على التحريض الوقتي أو تسامق به (سالم، ٢٠٠٥: ١٣٧).

يلاحظ في شعر عبدالعزيز المقالح المقاوم الدعوة إلى الرفض والتحدي والصمود في وجه الاحتلال الإسرائيلي الغاشم والشاعر متأكد من النصر والفوز لأبناء الشعب الفلسطيني.تسعى المقالة إلى الإجابة عن السؤالين التاليين:ما هي مكانة المقاومة والشعر المقاوم عند عبدالعزيز المقالح؟ وما هي أبرز تجليات المقاومة في شعر عبدالعزيز المقالح؟

هناك فرضيتان لهذين السؤالين وهما: ١. للمقاومة دور بارز في شعر المقالح لا يمكن تجاهلها وهذه ميزة قد تسببت في أن يكون المقالح شاعراً يمنياً مقاوماً. ٢. تتجلى المقاومة عند المقالح في شعر الكفاح والنضال ضدّ المستعمر والمقاومة الفلسطينية والشهيد والاستشهاد والنظرة القومية.

١.١ خلفية البحث

هناك دراسات كثيرة تناولت شعر المقالح، منها رسالة بعنوان التوجهات الحديثة في بنية النص الشعري المعاصر في اليمن (شعر عبدالعزيز المقالح ولطفي جعفر أمان نموذجاً)، لصالح حسن

محمد علي الوجيه، وهي نوقشتْسنة **۲۰۰۳**، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة عدنحيث تناول الباحث فيها البنية والصورة البلاغية والفنية والكلية والرمزية واللغة الشعرية والبساطة والتعقيد فيها من الألفاظ والتراكيب والتوازي في بنية التعبير والبنية النحوية والصوتية لدى الشاعرين معتمداً المنهج البنيوي الشكلي واللغوي والتحليلي والتطبيقي.ورسالة «نقاب پيامبران در شعر شعراي برجسته معاصر عرب (أدونيس وعبدالعزيز المقالح)» ناقشتها زريان فتاحي بجامعة طهرانسنة **۱۳۹۱** حيث تناولت التناص ومفهومه في الأدب العربي ثم ظهور المذهب الرمزي والقناع وخلفيته في الشعر والأدب العربي وعناصره ودوافعه والعلاقة بينه وبين الأسطورة ومقالة «التكرار وأنماطه في شعر عبدالعزيز المقالح» لصلاح مهدي الزبيدي ونصرالله عباس حميد المنشورة في مجلة ديالي، العدد السابع وستون، **۲۰۱۵**، حيث تناول الباحثان الكشف عن ظاهرة التكرار وأنماطه في شعر المقالح سواء في قصائده العمودية (التقليدية) وقصائده الحرة التي كان لها الأثر الواضح في إكساب بعض قصائده بعداً إيقاعياً وجرساً موسيقياً أسهمت في رفد البنية الإيقاعية ومقالة «وقفة مع الأديب اليمني عبدالعزيز المقالح وتحليل شعره» لمهدي ممتحن وسيدجواد حسيني، المنشورة في فصلية دراسات الأدب المعاصر، السنة الثالثة، العدد الحادي عشر، **۱۳۹۰**، حيث اعتبر الباحثان المقالح أحد أدباء اليمن المعاصرين وتناولا حياته وسيرته ثم تطرقا إلى العلوم الدينية والإشارات التاريخية في شعره ومقالة «واكاوي كاركر اسطوره‌هاي يونانى در اشعار عبدالعزيز المقالح»: (دراسة في وظائف الأساطير الإغريقية في أشعار عبدالعزيز المقالح) المنشورة في مجلة الأدب العربي، خريف وشتاء **۱۳۹۲**لرسول دهقان ضاد وآزادة ميرزائي تبار، حيث تناولا الأسطورة والشخصيات الأسطورية في الشعر واعتبرا بدر شاكر السياب في «أنشودة المطر» ويوسف الخال في «البئر المهجورة» رائدين لتوظيف الأسطورة في الشعر العربي وكما يعد عبدالعزيز المقالح أبرز شاعر يمني معاصر وهو الذي استخدم الأسطورة في شعره للتعبير عن مشاعره وأحاسيسه حول اليمن وفيما يتعلق بالمقاومة فإن هناك دراسات كثيرة غنية عن التعريف بها سبقت هذا المقال ولكن وما يمتاز به المقال هو أن دراسة الثورة والمقاومة في شعر المقالح لم تناقَش في الدراسات السابقة وقد تعد هذه الخطوة الأولى في هذا المجال.

٢. المقالح حياته وثقافته

ولد الشاعر عبدالعزيز المقالح عام ١٩٣٩ في قرية صغيرة من قرى اليمن المتناثرة على جوانب وادي (بنا) أشهر وديان اليمن وأكثرها جمالاً. دخل الشاعر دار المعلمين وتخرّج فيها عام ١٩٦٠ وأكمل دراسته الجامعية في القاهرة وحصل على درجة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها من جامعة عين شمس عام ١٩٧٧ وقد تناول في أطروحته الشعر الشعبي في اليمن (أبوجبين، ٢٠٠٤: ٣٣٤). فهو من أبرز الشخصيات الأدبية في اليمن المعاصر بما قدّم من شعر ودراسات حول الشعر وعبدالعزيز المقالح من شعراء المدرسة الجديدة في الشعر المعاصر وفي اليمن على وجه الخصوص ولعلّه أبرز هذا الاتجاه الشعري في اليمن. فقد كتب في الشكل الشعري الجديد منذ بدايات الستينات واستمرّ على هذا الأسلوب في الكتابة حتى يومنا هذا وهو من الشعراء الذين يتميز شعرهم بصفة عامة بقدر كبير من المساحة؛ فهو يعطي نفسه دون التواء ودون إغماض وفي الوقت نفسه يبدو عمله الشعري تعبيراً حقيقياً عن إنسان يعيش أزمته الخاصة التي لا تنفصل عن أزمة وطنه بحال من الأحوال ويعاني في صمت لأنه أميل إلى الصمت (إسماعيل، ٢٠٠٦: ٢٢٠).لقد استطاع الشاعر أن يخترق المفازات ليوصل صوت اليمن الحديث إلى كلّ أنحاء العالم العربيّ، شاعر استلهم تراث أمته واستطاع أن يعبر عنه بصدق وإخلاص. شاعر جمع بين الأصالة والتراث من جهة والحداثة والمعاصَرة من جهة أخرى. شاعر أديب ناقد باحث مؤرخ ولم يقتصر على الشعر وحده ومؤلفاته خير شاهد على ذلك. شاعر ذو خبرة واسعة في مجال العمل الأدبي والاجتماعي والثقافي والسياسي. شاعر غلف الحزن قلبه منذ مولده وجعله يكره التحدث عن ماضيه لما يختزنه هذا الماضي من ذكريات مؤلمة ولعلّ سيرة حياة هذا الشاعر تكشف لنا بعضاً مما يتميز به هذه الشخصية التي تختفي وراء هذا الإنتاج الأدبي الهائل الذي أثرى به المقالح المكتبة العربية عن اليمن وأدبها وتاريخها بالدرجة الأولى (أبوجبين، ٢٠٠٤: ٣٢٩).

٣.محاور المقاومة في شعر المقالح

الشاعر عبدالعزيز المقالح يعدّ في طليعة شعراء اليمن المعاصرين وأبرز الروافد اليمنية الثرية

للشعر العربي المعاصر وهو كما يتضح من أسماء مجموعاته الشعرية مهموم بقضايا وطنه يتخذ من جغرافيته وتاريخ أبنائه وشخوصه التراثية أقنعة تعكس بشفافية معاناة الشاعر والتزامه الفكريّ (مصطفى، ١٩٩٤: ١٥٥). هو واحد من ألمع شعراء الواقعية الاشتراكية في الأدب العربيّ المعاصر. تلك الواقعية التي ردت أنّ النص مسؤولية والتزام. مسؤولية الفنان نحو عصره وقضايا واقعه والتزامه بالتعبير عنها خاصة في إصلاحها من أجل الغد. حاول الشاعر اليمني الكبير عبدالعزيز المقالح أن يقدم مفهومه للشعر في المقدمة التي صدر بها ديوانه الذي يضمّ أعماله الكاملة، فوضع أمامنا في هذه المقدمة فلسفة متكاملة عن مفهوم الشعر كما يراه وعن وظيفته ودوره في حياة الناس والمجتمع (الورقي، ٢٠١٠: ١٣٣).رأى المقالح أن الشعر رؤى لعالم جديد ومحاولة للنفاذ خلال الحلم مما هو كائن إلى ما ينبغي أن يكون، ليس في عالم الواقع المادي فحسب، بل في عالم الحلم نفسه أي في العالم الشعري، حيث يحلم بلغة جديدة غير مسكونة وينابيع لم تطرق بعد (المقالح، ١٩٨٦: ٨).هنا يتناول الباحث محاور المقاومة في شعر عبدالعزيز المقالح انطلاقاً من الثورة الوطنية ثمّ القضايا الاجتماعية والسياسية والشهيد والاستشهاد والقومية العربية والمقاومة الفلسطينية.

١.٣ الثورة الوطنية

يحلّ الوطن في المدونة الإبداعية عموماً والشعرية منها على نحو خاص، بوصفه ملهماً شعرياً أصيلاً من ملهمات المبدع وطالما تغنى الشعراء بأوطانهم من باب توكيد الهوية الوطنية والاعتزاز بالأرض والانتماء إليها وربما لا يوجد شاعر أصيل في الكون لم يتغنَّ بوطنه في شعره، فالوطن بوصفه موضوعاً شعرياً يمنح الشاعر طاقة شعرية مشحونة بالعواطف والمشاعر الصادقة التي تسهم في توطيد معالم الرؤية الشعرية وتجعل من اللغة الشعرية ميداناً لتحفيز المشاعر والعواطف كي ترتقي أعلى سلالم الوجدان والمحبة فضلاً عن أنّها تتشكل بأمثل وأحلى صور التعبير الشعرية عن حالة الحبّ المصيرية بين الإنسان الشاعر ووطنه الأرض والتاريخ والطفولة والذاكرة والحلم (علي، ٢٠١٧: ١٤٩).إن التنشئة الوطنية تبدأ منذ لحظة الولادة فيرضع الطفل نسمات حبّ الأسرة والمجتمع والوطن مع كلّ قطرة من لبن أمه وهي

تهدهده بأغاني البطولة والتحميس للدفاع عنه بمثل ما تغذيه بحب الناس، ثم يأتي الفن والأدب في رياض الأطفال والمدارس والجامعات ليبث عطر الفداء للوطن والأهل استجابة للتربية الفطرية والمكتسبة الممزوجة بعشق التراب والقيم (جمعة، ٢٠١٤: ٢٢٠).

لم يكتب شاعر عربي عن مدينة عربيةبرهبة وشغف مثلما كتب الشاعر عبدالعزيز المقالح عن صنعاء وقصيدته الطويلة التي سماها *كتاب صنعاء*. هي قصيدة حبّ أولا وأخيراً ولكنّ حبّاً لا يخلو من التناقض الذي يسم الهموم الكبيرة عادةً فهو حبّ مثاليّ ومأساويّ في الحين عينه، حسّي وروحي وواقعي وتاريخي، حبّ مدينة كما لو أنه حبّ المرأة في براءتها وإثمها، في صفائها وغموضها، فالمدينة كانت امرأة كما يقول الشاعر في مستهلّ قصيدته قبل أن تصبح قصيدة وفي الختام يستعيد الشاعر اللعبة المجازية نفسها ليعلن أنّ المرأة التي كانت مدينة أصبحت قصيدة ولعلّ هذه العلاقة الجدلية بين زوايا هذا المثلث العجيب هي التي أضفت على *كتاب صنعاء* مواصفات الحبّ العميق الذي ينصهر في جحيم اللغة والمكان والجسد (وازن، ٢٠٠٤: ١٤).

وفي قصيدة *بالقرب من نخلة الله*:

أنَّ النُّجومَ أتتْ مِنْ هنا/ والغُيومَ أتتْ منْ هنا/ وأنّ عشتارَ كانتْ تُغنِّي هنا/ أنّ مجنونَ ليلى/ وكلّ شقيقاتِ ليلى/ مَضوا منْ هنا/ لَعِبوا/ أحبّوا/ بكوا/ وَصدىً لارتعاشةِ أقدامِهم يتمطّى/ فيستيقظُ الشعْرُ تحتَ التُّرابِ الأليف/ ويورقُ صوتُ الحَجر (المقالح، ٢٠٠٤: ٢٨٩/٢-٢٩٠).

قام الشاعر بتوظيف أسطورة عشتار[١] وهي عادت إلى الأرض بعد السفر إلى العالم السفلي. فالشاعر يبحث عن زمن الخلاص والعودة إلى الأرض اليمنية حيث كانت ذكريات مجنون ليلى و شقيقات ليلى من لعبهم وحبّهم وبكائهم مازات موجودة وارتعاشة أصواتهم تُسمَع وهذه الأرتعاشة جعلت التراب أليفاً يرغَب فيه والشعر يصحو تحت هذا التراب ويسترجع قوته وحركيته ليكون نافذاً وسارياً ويورق الصوت الحجر الذي رمز للمقاومة والثورة والنضال. ومثل النخلة وما شابهها رموز تمّ استدعاؤها في التراث الشعري العربي وهي رمز للصمود والدوام والنضال والمجابهة لكلّ ما يعكر صفو الحياة المعيشي للمواطن العربي ويمسّ

هويته. إذن تفيد كلمة النخلة في العنوان واقترانه بلفظ الجلالة أي نخلة الله أن الهذه المقاومة هي مقاومة نبيلة طاهرة لا يشوبها خلل وهي إلهية وكلمة بالقرب توحي إلى أن النصر قريب ليس ببعيد عن المناضلين الثائرين. إذن يستعين الشاعر بالأسطورة ويوظّف موضوعها الجوهري كي يولي اهتماماً بالغ الأهمية بوطنه وتمنح الحياة للأرض.

ويعبّر الشاعر عن موقفه من موطنه في قصيدة *اليمن*

... الحضور والغياب:في لِسَاني يمنْ/ في ضَميري يمنْ، تحْتَ جِلْدي تَعيشُ اليمنْ/ خلْفَ جَفْني تنامُ/ وتصْحُو اليمنْ،/ صرْتُ لا أعْرِفُ الفرْقَ مَا بينَنا ../ أينا يا بِلادي يكُونُ اليمنْ؟!/ حينَ تبْكينَ/ أسْقطُ دمْعاً على رَاحةِ الحزْنِ/ حينَ تحْتضِرينَ أموتُ ../ يصدِّرُني الموْتُ للْعالَمِ الأسْفلِ/ المظْلمِ القَاعِ،/ يشْربُني العَدَمُ المرُّ/ يأْكُلُني ../ حيثُ لا قَبْرَ لي، لا وَطَنْ (نفس المصدر: ٢/ ٧٠٢-٧٠٣).

لا يدور على لسان الشاعر إلا كلمة اليمن ولايشعر في ضميره بشيء سوى اليمن ولا يعيش خلف جلده إلّا اليمن. تنصّ هذه العبارات البسيطة على مدى حبّ الشاعر لوطنه بحيث كأنه ذاب فيه واتحد معه واستوى ولا يدري جسمه هو اليمن أم الأرض وحينما تبكي اليمن على مصائب أبناء الشعر والمواطنين فيذرف الشعر الدموع حزيناً وليس لهذا الحزن سبب إلّا الحبّ لمسقط رأسه.الحبّ الذي يجعل الشاعر يسافر إلى الأزمنة الماضية وذلك الألم الدائم الأزلي. ثمّ يعود الشاعر إلى وطنه على قارب من الهمّ والغمّ. فلمّا يرحل الوطن عنه يتحوّل دم الشاعر إلى لغة الشوق وهذا خير دليل على أن الشاعر هو على أتمّ الاستعداد للدفاع عن أرضه بأغلى ما لديه وهو الدم أو النفس. هكذا يبدي الشاعر شوقه إلى وطنه ويموت أو بعبارة أحرى يستشهد وبالتالي يكتبه ويسجله ويحفظ اسمه في ذاكرته كلّ الراحلون عن الوطن أو المقيمون فيه وحينما دفن الشاعر في أرض الوطن تتحول الأرض والشعر إلى لغة الرفض والمنح والدمع والضحكات في آنٍ واحد ويتبدّل الوطن إلى شباك للنجوم التي تنزح عن الوطن وتبحث عنه. حينما يحضر الموتُ الوطنَ يلفظ الشاعر أنفاسه ويصدّره الموت إلى عالم أرذل قاتم حالك يصاب الشعر بالعدم والفناء حيث لاقبرَ للشاعر ولاوطن.

يقول الشاعر في *قصيدة هي الوطن*:

كـانَ يعْشـقُها/ يتشـمَّمُ أرْدانَهـا/ ومناديلَهـا في الحَجَـر./ كـانَ يهْمـسُ للبَحْـرِ:/ آتيـةٌ مثـلَ صَفْصَافةٍ/ مثْلَ شَمْسٍ بُعَيدَ المطَر/ كانَ يعْرِفُ أنَّ الغريبَ يقَاتلُها/ والقَريبُ يماطِلُها،/ وَهْيَ – كالنَّـاسِ– تحْلُـمَ بـالزَّمنِ المنْتَظِـر/ كـانَ آباؤُهـا الطيبُـونَ/ يطُوفُـونَ مـنْ حَولِهـا/ كالفَراشَـاتِ/ يحْتشِدونَ/ يحْترقُونَ/ يصُدُّونَ عنْهَا ذُبابَ الضَّجر/ وأخيراً أتتْ/ رَحَلَ الغُرَباء/ بَكَوا حُلْمَهُم،/ هَبَطُوا ../ احْترَقُوا مثْلَ قَشٍّ علَى منْحَدَر/ قُلْ: ألُوذُ بوَحْدَتِنا/ أتزمَّلُ بهْجَتَها/ وَمَواعِيدَها، وأمدُّ يدِي للْقَمرْ (المقالح، ٢٠٠٤: ٣/٣٧٤-٣٧٥).

فالشاعر في هذه السطور يناجي البحر ويحضر مثل شجر الصَّفصاف الذي ينمو أينما كان من المناطق الباردة والمعتدلة وممَاثلةًللشمس تظهر بعيد المطر وتتسبب في نشوء قوس قزح وتدلّ على جوّ صافٍ نقيّ لا يشوبه كدر وكأنّالشاعر يعرف أن الغريب يحاربها ويعاديها والقريب يتجاهلها أو يتناساها ويسوّفها وجعلها تنتظر واليمن مثل الناس ترى في نومها ترتقب وصول الزمن المستقبل، بينما كان لها آباء وأجداد شرفاء يحمونها يدورون حولها ويكافحون من أجلها ويذودون عنها كالفراشات التي تدور حول النار وتحترق وتموت ولكنها لا تترك ما تعشقه وهو الكمال بالنسبة لها. قام الشاعر بوصف الآباء الأعزاء الشرفاء بالفراشات، كأنهم كانوا فدائيين لقد ضحّوا بأنفسهم في سبيل الدفاع عن أرض الوطنصوناً لعرضهم ورغم أنهم يحترقون ولكنّ أرواحهم تبقى الشعاع الذي يتجه نحو الكلمات لتلتهب بالحرية أو بمياه المطلق. هنا يناشد الشاعر المتلقي أن يقول إنّي أعوذ بالوحدة وأتلفّف بسرورها ويكون هذا المقطع بمثابة جذوة النضال والدعوة إلى القومية ويسعى الشاعر من خلال القياس بين الحاضر والماضي المجيد إلى الدعوة إلى لمّ الشمل وترك الانفصال وهكذا يطرب الشاعر للوحدة كما يلاحظ في كلمة البهجة ومواعيدها ومدّ اليد إلى القمر وهو مدّ ثوريّ للإشادة بالبطولة والتضحية والتأكيد على القوة والصمود. لكنّ القمر عند المقالح مصدر للعون والعطاء يجعل الشاعر يفكر فيه لما يئس من الغريب والقريب وخاب أمله في كلّ من يتوقّع منه العون والإغاثة.

٢.٣ القضايا الاجتماعية والسياسية

إنّ ارتباط الأديب بقضايا عصره على اختلاف أنواعها وبمشكلات الحياة في المجتمع الذي يعيش فيه – مهما يكن لها من طابع محليّ–ليس شيئاً غريباً على طبيعة الأديب، فنحن نفترض في الأديب المعاصر حصيلة وافرة من الثقافة والخبرة فضلا عن حسّ مرهف وإحساس سليم للأمور ودقة في ملاحظة الحياة في تطورها الظاهري والباطني وهذه الميزات لا يمكن أن تسمح للأديب أن يعيش في عزلة عن قضايا مجتمعه ومشكلاته بل الأحرى أنها تشده إليها شداً (إسماعيل، ٢٠٠٧: ٣٧٤). يزخر الشعر بصفة عامة بالإشارات الإنسانية التي تنفتح على قضايا الإنسان ومشكلاته وهمومه وبناءً على هذا فإنّ القضايا الاجتماعية والسياسية هي أحد ركائز الشعر المقاوم لأنّنا نجد فيه كمّاً هائلاً من الهموم والمشكلات التي يعانيها ويكابدها الإنسان بجانب تطلّعاته نحو الحرّية، والشاعر من خلال معالجته لهذه القضايا يرسم الإنسان ويصوّره كأنّ لديه إرادة صلبةُ في تحدي هذا المشاكل والحواجز ولديه رغبة حقيقية في النصر والفوز والسيطرة على واقعه المأساوي. والمقالح بصفته شاعراً يعيش واقع وطنه ومواطنيه لم ينس هذه القضايا ومعالجتها ويسعى إليه الشاعر من خلال هذه المعالجة هو التأكيد على الحلم المواطن البسيط الذي كاد أن يزول أو التصريح على الأمل الذي ينبعث من بين الأنقاض وهو يدلّ على الاستمرار والبقاء والدوام والتجنّب عن الخيبة واليأس رغم أنف كلّ حاقد أو حاسد يهدف إلى أن يمحو تاريخه ويطمس هويته.

عبّر الشاعر في قصيدة *حوارية عن الموت* موقفه من ظاهرة الفقر الاجتماعية:

/«لوْ كانَ الفقْرُ رَجُلاً لقتلْتُه»/ عليُّ بْن أبي طالِب/ الشاعر: منْ يقْتُلُهُ..؟ هَا هُوذَا يرْتادُ الحَاراتِ المقْهُورَه/ ممْتطِياً فرسَ الجُوع/ وممْتشقاً سيفَ الأحزان/ يذْبَحُنا أطْفالاً وَشُيوخاً/ يحْيا في الأقْبيةِ السَّوْدَاء/ يتَجَوَّلُ فِي الأَحْياءِ المزْدَحِمَه/ لِمَ لَمْ تقْتُلهُ يا ابْنَ أبي طَالِب؟!/ سيفُكَ كَانَ طَوِيلاً/ يخْرُجُ مِنْ صَفَحَاتِ القُرآن/ سَيفِي مَا أقْصَرَه/ كَلِمَاتِي مَا أقْصَرَهَا/ تخْرُجُ مِنْ شَفَتَي إنْسَان/ لَا حَوْلَ لَه، لَا شأْنَ/ عليُّ بنُ أبِي طالِب:/ سَيفِي كانَ طَوِيلاً/ لكنَّ الفِعْلَ قَصِير/ فلْيغفرْ سيفي/ الشَّاعِر:/ هلْ كانَ الموْتُ طريقَ الفَقْر؟/ أمْ كانَ الفقْرُ طريقَ الموْت؟/ عَلِّمْنَا ابْنَ أبِي طالبٍ مِمَّا عَلَّمَكَ الله/ عليُّ بْنُ أبي طَالِب:/ الموْتُ الفقْر/ الفقْرُ الموْت/ منْ يسلُبْك

اللُّقْمة/ يسلُبْك الرُّوْح/ منْ ينزعُ عنْكَ الثَّوْب/ ينزَعُ عنْكَ الجِلْد/ هذا «ألِف الأشْياء»/ «أبْجَد» أَسْفَار العُمْر(لمقالح، ١٩٨٦: ٦٠٠-٦٠٤).

قال علي بن أبي طالب (ع): «لو تمثّل لي الفقر رجلاً لقتلتُه» (جرداق، ١٣٧٥: ٢٣٣). هكذا يعاني الشاعر من مرارة الفقر في مجتمعه والأوضاع الاجتماعية المعيشية المتدنية التي لا تسمن ولا تغني من جوع ولا تفي بالحاجات الإنسانية المبدئية وشبّه الفقر بإنسان يجول بين الحارات والأزقة والشوارع وهو يركب فرس الجوع ولما حضر يعصف بالأخضر واليابس معاً؛ إذن يقتل الجميع صبياً كان أو شيخاً معمّراً. هنا يطرح الشاعر سؤالاً لأمير المؤمنين وهو لماذا ما قام علي (ع) بقتل الفقر؟ ثمّ يعلّل الشاعر لطرح مثل هذا السؤال من شخصية علي قائلاً: لأنّ سيفك يا عليّ كان طويلاً صارماً يخرج من صفحات القرآن، فما كان يقوم به علي، حقّ لا غبار عليه. وفي المقابل كان سيف الشعر لمقابلة الفقر طويلاً أيضاً ولكنّ فعله كان قصيراً. تدلّ هذه العبارة على أن ما كان يدّعيه الشعر لكافحة الفقر والجوع والحرمان لم يكن يتجاوز عن مجرّد الكلمات والمواعيد أو كان قول بلا فعل. أقوالٌ لا أثر لها ولا شأن يذكر. ثم يستمرّ القول ويسأل المغفرة لسيفه لأنه لم يهتزّ ولم يرتجف في يوم من الأيام ولم يتجرّع دم الفقر بشفتيه الظامئتين. هنا يتلهّف الشاعر ويأسف على ما فاته من العمر وهو لم يعرف وجه الخصم «الفقر» في ظلام الواقع المأساوي المرير الذي لا يمكن فيه تبيز الحقّ من الباطل. هنا يرسم الشاعر الفقر في صورة فتاة ثري إقطاعيّ يعيش في قصر يتزوّج خمس فتيات ويستخرج مشروباً كحولياً من ثمار شجرة القات[٢] بينما أنا وسيفي نفتّش عنه بين المعوزين أينما يوجد الجوع، فما يفعله الفقر هو زرع البؤس والمحنة بين الناس ويتسبّب في ذرف دموع تتحول إلى رماد هو يبيعها. فكلّ من يبحث عن الفقر ليقتله ويمحوه فليبحث عنه بين الأثرياء في حفلات رقص «التانجو»[٣]. في هذا القسم يطرح الشاعر هذا السؤال المحوري الذي يطلب من الإمام علي أن يجيب عليه مما علّمه الله وهو أنّه هل الموت يؤدّي إلى الفقر أو الفقر يؤدّي إلى الموت؟ أيهما يسلب اللقمة من فمك يا عليّ؟يأتي سياق هذا السطر الشعري في إطار العلاقة العضوية بين الشاعر والمجتمع وهي علاقة متبادلة تتجذّر في أنّ الشاعر يشعر بالمسؤولية تجاه ما يحدث فيه؛ إذن لاحظنا في هذا المقطع كيف قام الشاعر برسم ثنائية الفقر والحرمان من جانب ومن جانب آخر الأريحية والغناء والثراء في أجمل صورة كان الشاعر

يستطيع أن يرسمه باستدعاء شخصية دينية مناضلة للفقر والتمييز العنصريّ والطبقي في المجتمع وهذا المقطع كما رأينا قد اعترف الشاعر فيه بأن كلّ ما نسمعه من مكافحة الفقر والحرمان من قبل الحكّام والمسؤولين ليس إلّا دعايات كاذبة وخادعة ولو كان هناك شخصية مثل علي (ع) لكافحة الحرمان الاجتماعي، لكان مجتمع الشاعر يعيش واقعاً أحسن من هذا.

وفي قصيدة أغنية قديمة للحبِّ والحرِّية:

مَهْمَا يطُلْ ليلُكَ يا مَوْطِني/ فَيشْتَكِي السَّفْحُ، وتبْكِي القِمَمْ ** ويزْرعُ الموْتُ عَلَى أفْقِنَا/ موْتاً، وتطْوِينَا رِياحُ العَدَمْ ** وَتنْهَشُ الأحْزَانُ أجْفَانَنَا/ وَينْكَفِي فِي الْحَدَقَاتِ الأَلمْ ** فإنَّ لِلَّيلِ –غَداً– آخِراً/ مَهمَا تَرامَى حَولَنَا وَادْلَهَمْ ** "سَتَنجَلِي الغُمَّةُ يا مَوطِني/ وَيسمَحُ الفَجرُ غَوَاشِي الظُّلَمْ" ** وَيضْحَكُ الحَقْلُ وَوَجْهُ القُرَى/ وَفَجْرُنا –رَغْمَ الدُّجَى– قَادِمٌ/ وَصَوتُنَا البَاكِي يهزُّ الرِّمَمْ ** فلْتنتظرْ يا مَوطِني زَحْفَنا/ نحنُ، وُقوفاً تحْتَ ظلِّ العَلَمْ (المقالح، ٢٠٠٤، ٣/ ٢٠٦). كلّما زاد امتداد ليلك يا أرض الوطن ويشكو أسفل الجبل وتذرف الدموع أعالي الجبال وكلّما زرع الموت بذرة العدم فوق أفقنا وأمات منا وهّب علينا رياح الفناء مزّقت الهموم عيوننا ولسعتها وبقي الجرح في أحدق عيوننا ولكنّ على الرغم من هذا كلّه لهذا الليل المؤلم غد آخر ينجلي مهما تمدّد وأظلم فسينكشف الحزن يا موطني ويمحو الفجر وإشراق الشمس غياهب الظلمات والسواد وتبتسم الحقل والسهل ووجه القرى وأشجار البنّ فوق التِّلال وبيتنا المنزوي خلف الظلمة وتستبشر بالنور وتستغرق النور والأنغام في الضحكة وتتلألأ في منتهى الإشراق والتلألؤ. فمن حول أشعارنا سوسن ونهر مليء بالكرم والعطاء والضوء والأطفال في ساحته أغنية وحلم ذو رائحة طيبة. فمهما ذبل أملنا العطشان يسقى بإضرام النار والدم وفجر الانتصار قادم إلينا – رغم الظلام – وصوتنا الممزوج بالبكاء والعويل ينثر العظام البالية فلتكن يا موطني منتظراً لمشينا وحركتنا. نحن واقفين تحت راية الوطن الأمّ.(إنّ الثنائية الدلالية للدم اقترنت بالتعبير عن التناقض السائد في الواقع المعيش؛ لأنّ الدم ارتبط بالصراع العربي الإسرائيلي من ناحية والصراع العربيّ العربيّ من ناحية ثانية، وقهر القوى السلطوية للقوى الشعبية من ناحية ثالثة. وتداخل هذه الجوانب أدى إلى اختلال المعايير سائدة في بنية الواقع وكانت الثنائية الدلالية للدم أقرب الأدوات التشكيلية للتعبير عن هذا

الخلل والتناقض الكائن في الأنظمة السائدة) (مبروك، ١٩٩٣:٣). فالشاعر استفاد من كلمة الدم في هذا المقطع لتدلّ على تضاعف نزعة التمرّد والثورة والكفاح المقترنة بصورة الدم. فالمفردات في بداية المقطع رسمت العجز والضياع والضعف والرخوة والهوان والتمزّق الذي أصاب أرض الوطن وما شابهها من الأوصاف الملائمة للأوضاع الاجتماعية الطارئة على مجتمع الشاعر ومواطنيه ولكنها شيئاً فشيئاً تغيرت وبمجيء مفردة الدم تحوّل إلى التطلّع إلى مستقبل أفضل ليس فيه ظلام الجور وسواد الظلم بل كلّ شيء يتلخّص في الأمل والترجي واستشراف مستقبل أحسن وأفضل.

٣.٣ الشهيد والاستشهاد

يجمع الشاعر المقاوم بين مصيره ومصير أمته ويتحمل التشرد والغربة والحرمان، إلي أن يجابه أعداء شعبه ولينفضّ عن أمته غبار التخلف والعذاب والتوتر؛ انطلاقا من هذا، فإن الشهيد والشهادة من أبرز وأهم وأوسع المجالات التي تناوله شعراء المقاومة؛ ذلك لأن الشهادة مقرونة بالجهاد، ومعلقة به كالرأس من الجسد؛ بحيث لا يذهب دم الشهيد الذي سال في المعركة أو الحرب هدراً، بل كان له خير جزاء عند الله.الشهيد عند المقالح رمزٌ من رموز الكفاح والمقاومة الوطنية، فبواسطة التذكير بأمجاد الشهداء وبطولاتهم، يثير الشاعر الأمل والتفاؤل والبهجة في قلوب المقاتلين؛ فالشهيد عنده هو الطاقة الخفية التي تجعل للشعب الخلود والمجد، وتظله بسحائب الخير والرحمة والرخاء، وهو الذي يرفع راية الجهاد والعزّ والشرف والفخر والكرامة مكافحاً ويبذل قصاري جهده، مستميتاً في نشر الحبّ للوطن، وأنه أدرك بمنتهي الدقة أن الانسان الذي لا وطن له، لا كرامة له.

نلاحظ في قصيدة *الشاعر الشهيد*، يهديها إلى روح شاعر الثورة .. الشهيد محمد محمود الزبيري: لِيضحَكَ الكهْفُ منَ الأعماق/ لتقْرع الكَنائسُ البعيدةُ الجراس/ لتفقأَ المدينةُ العابثةُ الأحْدَاق/ فمَا الذي سوفَ تَرى بعْدَك غيرَ الليلِ/ غيرَ اليأْس/ غيرَ مرارةِ الإِخْفَاق/ بعْدكَ لن نَذوقَ الأَمْنَ والنُّعاس/ لترْحلَ الطُّيورُ مِن أَوْكارِهَا بحْثاً عنِ الرَّبيعِ والزُّهور/ في غَابةٍ أُخْرى/ غابتُنا ليسَ بها سِوى القُبور/ مَنْثورةً/ تنْقشُها الرِّياحُ فوْقُ التِّينِ والصُّخور/ بعْدكَ كلُّ شيْءٍ مُرّ/

الناسُ والأشْجارُ والحياةْ/ وكلُّ نغْمةٍ على سمائِنا تمُر/ يا شَاعرَ الثَّوْرة والمأْسَاه/ «لوركْا»[٤] هناك جثةٌ بلا قَبْر/ تُمزِّقُ الحرابَ جسْمُه الصَّغير/ وأنْتَ يا أخَا «لوركا»/ هُنا .. تقْضِي بِنَفْسِ الخنْجرِ الحَقير/ نفْسُ الوُجُوه لو نظرْت/ نفْسُ الكهْفِ وَالأجير/ حينَ نزلْتَ في منفاكَ كانتْ ذكرياتكَ الحَزينه/ واقفةٌ تَنوح/ تطلّ منْ خصائصِ السَّطْحِ للمَدينه/ لعلَّ في جموعِها تمُرّ أو تلوح/ حينَ رأتْنِي أجْهَشتَ وأجْهَشَ المكانُ بالبُكَاء (المقالح، ١٩٨٦: ٦٣-٦٧).

يولي الشاعر اهتمامه بالشهيد في عبارات قصيرة بسيطة تنص على مدى عظمة الشهيد ومقامه وجلاله عنده، بحيث يقول في هذا المقطع: إن كهف الظلام يجب أن يضحك من صميم قلبه ولتقرع الكنائس البعيدة بسبب فقدان الشهيد ولتكن المدينة أعمى لا ترى هذه اللحظة كأنها فقئتْ عيناه. فما هو الذي تراه المدينة بعد استشهادك سوى الخيبة ومرارة الهزيمة وأيها الشهيد! نحن لن نتذوق طعم الأمان ونوماً بعيداً عن الكوابيس؛ ذلك أنّ الشهيد عند المقالح هو سبب الأمل والبعث والحياة والمان والأريحية. لا تنحصر هذه المشاعر في الإنسان بل الطيور أيضاً تتأثر برحيلك أيها الشهيد وعليها أن تترك أعشاشها باحثةً عن ربيع الفرح وزهور الرجاء في المستقبل؛ ذلك أن خريف الفرح أتى باستشهادك للطيور وعليها أن تبحث في غابة أخرى. بسبب أنّ غابتنا امتلأت بالقبور المبعثرة للشهداء؛ فالناس والأشجار والحياة كلها لها طعم مرّ. هنا يستدعي الشاعر شخصية الشاعر الإسباني لوركا ليقارن الشخصية الإسبانية المعاصرة والشخصية العربية وليقيس الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي يعيشها الشاعران. يعتبر الشاعر هذا الشهيد أخا لوركا ويرى له نفس المصير وله ذكريات حزينة ولا يعرف قصة استشهاده كثيرون ولكن قاتليه رجعوا وأخفوا حكاية هذه الجريمة وأهدروا الدماء ونهبوا الآثار وأسدلوا الستار على كلّ هذه الجرائم ولكنك يا شاعر الثورات اعلم أنّ كلّ القافزين فوق قبرك الساخرين منك غداً سيعرفون من أنت وأيّ نجم أفلوأيّ كتاب التفّ بعضه فوق بعض وذلكحين تنتشر الذئاب في الغاب ويأكل الجراد الأرض والإنسان والنبات ويصاب الإنسان بالقحط والجدب واستماع صوت الأذان في المحراب وإقامة الصلاة مما تشتهيه الأنفس.

وفي قصيدة *الوصية من الأقوال المأثورة لشهيد الوطن المناضل أحمد بن أحمد المطاع* ١٩٤٨م: - النَّقْشُ الأوَّل: جمهورياً جِئْتُ/ جُمهورياً عِشْتُ/ جُمهورياً سَأَمُوت/ أؤْمنُ باللهِ

العَادِل/ وَبأنَّ الناسَ سَواسية/ في الحُبّ/ سَواسية في الخُبز/ سَواسية في المَوْت/ سواسيةٌ في الجنةِ أوْ في النَّار/ لا فضلَ لأمريكيٍّ في الغَرْب/ على روسيٍّ في الشَّرْق/ لا فضْلَ لصينيٍّ في الشَّرْق/ على هنْديٍّ في الشَّرْق/ لا فضْلَ لأروبيٍّ في الغرْب/ على عربيٍّ في الشرْق/ الفَضْلُ الحقُّ لمنْ يعْبُرُ جِسْرَ الخَوْف (المقالح، ٢٠٠٤: ٢/٣٩٣-٣٩٤).

يتطرق الشاعر في هذه القصيدة الحلوة إلى بعض مواصفاته كمواطن عاديّ يعرف حق الشهيد عرفاناً جميلاً؛ منها أنه خُلق جمهورياً وعاش جمهورياً وسيموت جمهورياً وهكذا لم يتغير الشاعر في حياته حين ولد ومنذ نعومة أظفاره ولما كبُر وحينما يرحل، كما أنّه يؤمن بالله وأن الناس كلّهم متساوون في الحبّ ولقمة العيش والموت والجنة أو الجحيم. وبالتالي يرفض الشاعر التمييز العنصري؛ فالأمريكيّ والروسيّ والصينيّ والهنديّ والأروبيّ والعربي وبعبارة أخرى كلّ من كان في الشرق أو الغرب سواسية لا فضل لأحد على غيره إلّا من يتجاوز جسر الخوف والفزع ويصنع رغيف خبز ويكسب لقمة عيش من عرق جبينه ومن الريح ثياباً ليحفظه من البرد ومن البحر المالح غير القابل للشرب مصدراً للحب ومن قوت الشوق أغنية خضراء.يدلّ لون الأخضر على الأمل والتفاؤل ويثير الحركية والنشاط والأمل في المستقبل؛ فاقتران الخضراء بالأغنية دليل على الحركة والنموّ والخصب والنضارة والديمومة المستمدة من الطبيعة بجانب تضحيات الشهيد في حياته.ثم ينتقل الشاعر إلى النقش الثاني، حيث يقول: يا وجه بلادي المتمثّل في وجه الأمّ الطالع من قعر الموت. لي دليلان في حياتي من البداية إلى النهاية وهما الفجر أو الشروق وعيناك وتتضاعف حسراتي وزفراتي حين تنامين على قطع ملتهبة من النار، على سيف مواعيد عرقوب الكاذبة.يروي استشهاد إنسان شجرة هوية الشعب وينفخ فيه الحياة ويجعل اللاحقين يواصلون مشوار الثورة ويعتبر وصمة عار لكلّ من المتسامحين أو الخونة.

يقول الشاعر في قصيدة *قطرات من دم الجبل*:

كلّ عصر يجيء/ وفي كفّه قطرات من الدم/ في ثوبه وردة تتوهَّج/ تحفظ للشمس أشواقها/ للنهار/ وتمنح ألوانها للنجوم الشتائية الضوء/ قطراتٌ من الدم تخلق عصراً وتهدم عصراً .../ باحثةً عن شهيد/ قطراتٌ من الدم يحاصرها ليلُ تاريخنا/ وهيَ تطوي القرون .../ ألمح في ظلّ عينيك صوت حبيبٍ لنا/ وأشاهد نار عصورٍ من القلق المتوهّج/ أشهده

ينبِت الجبلَ البكرَ ضوءُ أصابعه/ ألف سنبلةٍ أثمَرَت في الرمال خطاهُ/ خطّت دماه/ وطني (المقالح، ٢٠٠٤: ٢/ ٤٦٠-٤٦٣).

لا شك أنّ كلّ من يريد استعادة المجد الوطنيّ القتيل أو الأرض السليبة التي تريد أن تعود إلى الحياة مرة أخرى فلا سبيل لذلك سوى الدم؛ لأنّ الدم خير شاهد على فاعلية الفن الصادق في توجيه استراتيجية الحياة.تتناول هذه القصيدة الكفاح والنضال ومن إثرهما النصر والفوز. قطرات من الدم تسقي عصراً وتمحو عصراً آخر وليل تاريخنا المليء بالظلام والعتمة تحاصر هذه القطرات ولا تسمح أن تهدر بل تسجّلها في أذهان أبناء الوطن وينظر الشاعر في عيني الشهيد صوت حبيب له ويشاهد في وجهه نار عصور قد مرّت بالشاعر بالقلق واللاطمأنينة. وهذا نور أصابع الشهيد ينبت ويزرع الجبل الذي لم يسبقه مثله وأقدام الشهيد أثمرت ألف سنبلة وطرحتْ ألف سؤال حزين ولا شك أن السؤال لا يحزن بل الحزن من خصائص الإنسان، فالشاعر حذف أبناء وطنه المحزونين وأتى بلازمة من لوازم المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة المكنية للتعبير عن مدى هذا الحزن والهمّ بين المواطنين وهكذا يبالغ في مدى فاعلية هذه القطرات من دم الشهيد إذ هي تزيل كلّ هذ الهموم والغموم وترسم تاريخ الوطن ولو وجد الشاعر حلّاً أفضل من هذه القطرات لتمسّك به والقطرة كما تنصبّ شيئاً فشيئاً فتدلّ على استمرارية دلالة هذه الكلمة وفاعليتها. من زاوية أخرى لا تحدّد الشاعر هوية هذا الشهيد ويجعله مجهولاً والعنوان يشير إلى قطرات من دم الإنسان المقاوم الراسخ أمام الشدائد والمحن كالجبل وهو ما عظم وارتفع من الأرض لا تمحوه رياح العواطف والزوابع؛ إذن فالشاعر يصف الشهيد بالجبل الراسخ في كلّ زمان ومكان والمقاوم أمام الظلم والطغيان.

٤.٣ النضال والكفاح

اليمن كما يلوح في شعر عبدالعزيز المقالح أسطورة فنية وغامضة لا يكفّ الشاعر عن الحنين إليها ولا يتوب عن الشوق. اليمن الأرض والتاريخ والبشر وهل هناك تاريخ بلا بشر؟ يملأ وجهك غبار الحسرة والندم إذا قرأت شعره ولم يسعفك الحظّ في أن تزور صنعاء وتسيطر دهشةً واستغراباً إذا قرأتَ شعره وزرتَ اليمن. أحقّاً يملك عاضقٌ كلّ هذا الحنين والشوق

لحسنائه البدوية التي نسيها الدهر فأفاقت على روح العصر في آخره منه؟ إنّ عبدالعزيز المقالح حين يتحدث عن اليمن يعرف كيف يخاطب الإنسان اليمني خاصةً – والعربيّ عامةً – وكيف يقوي شعوره بالذات وينمّي وعيه بهذه الذات وبالحياة معاً. وهذا الملمح – في ظني – من أبرز ملامح شعر عبدالعزيزومن أجدرها بالتقدير والدرس (رومية، مقدمة الأعمال الشعرية، ٢٠٠٤: ١/ ٩). ورد في قصيدة *مقتطفات من خطاب نوح قبل طوفان*:

قلتُ لكم من قبلِ أن يثورَ ماءُ البحرِ/ قبل أن تعربدَ الأمواج/ وقبلَ أن يغيبَ وجهُ الأرضِ/ قلتُ الداءَ والعلاج/ لم تحفلوا/ لم تسمعوا ../ كنتم هناك في الغيومِ في الأبراج/ أرجلُكم ممدودةٌ – كانت – إلى السَّحاب/ عميتُ لم أعد أرى شيئاً منَ الناسِ ../ منَ القُرَى،/ تلاشتِ الألوانُ والأسماء/ وأطبقَ الدُّجى/ وغامَ وجهُ الأرضِ والسَّماء (المقالح، ٢٠٠٤: ٣/٢٦٥-٢٦٧).

هناك شخصية دينية أخرى لا تقل أهمية عن مثيلاتها، ارتبط توظيفها بالحديث عن الثورة والغضب والاحتلال والعودة (النجاة)، هذه الشخصية هي شخصية النبي نوح عليه السلام الذي لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الإيمان وقد كان يدعوهم سرّاً وعلانية، فما آمن له إلّا قليل(لوحيشي، ٢٠١١: ١٢٧). يتقنّع الشاعر في هذه السطور بقناع النبي «نوح» لاستحضار ماضي أمّة أضاعتْ فرصة الفوز والتخلص من بلاء وكارثة فادحة ولكن الطوفان ابتلعها وما بقي لها أثر لما عصتْ نبيها وخالفتْها.إنّ توظيف رمز *نوح* عند المقالح لا يتجاوز الدلالة العادية في البداية؛ فهو عنده من أقدم الأنبياء وقد عمّر طويلاً، وأخبر الشاعر قومه عن الطوفان وتحدث لهم عن الداء والعلاج ولكنهم لم يهتموا به ولم يسمعوا كلامه، فأشفق الشاعر عليهم وقرّب سفينته إليهم ليركبوا وينجوا من أليم العذاب وشدته ولكنّ صوته لم يسمع بل يتجاوز هذه الدلالة ليكون دالّا على مآسي أبناء بلد كباراً كانوا أو صغاراً اختفت بيوتهم وأشجارهم وآثارهم فكأنهم لا هوية لهم فقدوا وأضاعوا كلّ شيء والشاعر لا يرى شيئاً من الناس والقرى.

نهضت هذه القصيدة على الرموز التراثية والموروث الشعبي اليمني والشاعر من خلاله يسعى إلى التعبير عن القضايا المعيشة والشاعر يجد في هذا الموروث مادة حية يعبّر من خلالها

عن الأزمات والمآزق التي يعانيها وهذا التواصل بين الشاعر والموروث خير أداة للتعبير عن هموم الشاعر الفكرية والمعيشية والاجتماعية والنفسية كما أنه آلة لتعبير الشاعر عن أمله بالخلاص ونقل مشاعره وأحاسيسه الصادقة إلى القارئ.

وفي قصيدة *من حوليات يوسف في السجن*:

كم فتى باعه أهله برغيف/ وكم من فتاة بحفنة قمح .. تسلمها المشترون وغابوا مع/ الليل بعد رحيل النهار/ حين جاءت إلى الجب قافلةٌ/ ومن الجب أنقذني أهلها/ ورأيت السماء ضحكت.../ آهٍ بين الجبال المحاطة بالموت والليل ترقد «صنعاء»/ فاتنتي/ يستبيح الغزاة ملامحها والعزيز يداعب قطته/ في هوان ويحصي الريالات/ لا تبتئس لستَ وحدك في السجن/ كل الحدائق والشجر البكر في السجن/ والشمس في السجن/حتى الطيور التي عبرت أفقنا أصبحت مثلنا في القيود/ سجينه/ مَن مِن القبر يحملني؟/ للحقول البعيدةِ يرجعني؟/ طائري يعشق الفجر/ يهوي الحياة طليقاً/ ويكره وجه جدار الظلام/ تعذبني لحظة الانطفاء/ تعذبني ساعة الارتحال/ حصحص الحق/ هل تستطيع القيود على شفتي أن تبلغها. إنني قد/ قبلت الشروط ... من الآن سوف/ أراودها أنا عن نفسها، وأشق القميص بأنفاسي الداميات الأظافر/ أعرف أن محاسنها ذبلت/والغصون تحاصرها/ يقضم الدود أثداءها/ شفتي تتوقى العجائز/ لكنها السنوات العجاف –هنا– علمتني بألا أرد/ لراغبة ظهر ودي لأسلخ/ من ظلمات الزنازن روحي/ وانتشل الجسم من قسوة الاغتيال (المقالح، ١٩٨٦: ٥٤٦-٥٥٢).

يرمز يوسف إلى خيب أهلُه رجاءَه بحيث إنه تجاهله إخوته وبذلوا قصارى جهدهم لقتله.استدعى الشاعر في هذه القصيدة الشخصيات الفاعلة والمؤثرة التي ذكرت إيجاباً أو سلباً في القرآن ولم يكتف الشاعر بذكر الشخصيات فقط بل تجاوز ورسم الصورة بريشة كأنه أدى كلّ ذي حق حقه. يوسف هو الحزين الملقي في غيابة الجبّ وظلام الجهل الذي لا حصر له والعزيز هو الغافل عن شؤون الناس وليس له إحساس بالمسؤولية؛ يفعل ما يريد. يلاعب قطته في خزي وعار ويحصي ريالاته ويستر مفاتيح ممتلكاته خلف ثيابه وثمة جياع يبيتون حول القصر لا ثياب لهم يمنعهم من الحرّ والبرد، يصلون وينتظرون بلا جدوى وامرأة العزيز خائنة لا تفكر سوى في غرائزها الجنسية وملاهيها. لقد أجاد الشعر في توظيف القصة

القرآنية لرصد ما يكابده شعبه وأمة العربية. حالياً بينما يكون المنقذ أو المنجي بعيد عن وطنه أو تمّ إلقاء القبض عليه، ثمة حكام العرب يبيعون النفط ويحصون دولاراتهم ولا يهمهم ما يعانيه أبناء الشعب العراة الجياع. وإن ذكر الشاعر مدينة صنعاء ولكن الخزي والعار تجاوز صنعاء ليشمل الجزيرة والقاهرة ومدن أخرى كثيرة، إذن صنعاء الشاعر العربية رمز لغيرها من العواصم العربية التي ترزح تحت نير الظلم والظلام ويرمز العزيز إلى كلّ حاكم أو ملك خائن لا يبالي غيره وامرأة العزيز رمز لكل فاسد اتخذ إلهه هواه وخاب رجاؤه وانكسر. «لقد وجد اليمن والوطن العربي من البؤس والحزن والألم ما جعل الشاعر يبحث عن معادل موضوعيّ يحمّله همومه وأحزانه فاختار شخصية النبي يوسف بما تحمله من سمات التفرّد والثراءولما فيها من إحالة أسلوبية إلى البراءة والعفوية والمعاناة في وسط زمرة من المتآمرين الذين اكتفوا بأقل ما لديهم من إمكانيات الفتك به فأخذوه من بين يدي والده المحبّ له ورموه في بئر موحشة عرضة للهلاك والموت» (الخليل، ٢٠١٢: ١٠٢). قد تحمل القصيدة وجهين: وجه الشاعر المتكلم ووجه العربي الذي قدّر له أن يقضي حياته في السجن وعليه ألّا ييأس والسنوات العجاف هي الأزمنة الفائتة التي عانى الشاعر وشعبه شتى الهموم وتحملوا كافة أنواع التبكيت والتعذيب. وقد تشير إلى ما يعيشه الشعب اليمني من العدوان والاحتلال والقصف والدمار؛ ولكن النتظار والأمل في المستقبل هو سلاح الشاعر لمجابهة المحتلين.

يقول الشاعر في قصيدة *رسالة إلى سيف بن ذي يزن*:

الديباجة/ سفحنا عند ظل الدهر تحت قيودنا ألفا/ ونصف الألف/ من أعوامنا العجاف/ وأنت مشردٌ/ وبلادنا تدعوك وا «سيفا»/ أتستجدي لها في الغربة الأمطار؟/ أتحرثُ في الفضاء،.../ ومازالَ الظلامُ هنا/ و«أبرهةٌ» يسوقُ قوافلِ الأحرار/ ويبني من جماجمنا/ كنيسة ربه القهار/ الحنين/ ملحوظة/ أتنتظرُ المساعدةَ الكريمةَ يابن ذي يزن/ سنرفض أيّ حلٍ سوف يأتينا مع السفن/ سيرفضُ شامخاً وطني/ إذا «سيزيف» لم يحفل بصخرته/ ويقذفها إلى أسفل/ فمن ذا غيره يفعل/ بحق الحبّ دعه يصارع المحتل/ سيفشل مرةً ../ لكنه في قادم المرات لن يفشل/ عتاب/على كلّ الدروب بكلّ منتجع/ طيوفٌ داميات اليأس والوجع/ تفتش عنك يا «عوليسنا» المفقود في وجعوتسدل كل عابرة ضبابية ولامعة سرابية/ ومازلت مشردة/ تضج

بسجنها النائي/ وتشكو سطوة الداء/ وتصرخ في الظلام، متى؟ أيا «عوليسنا» «بنلوب»[٥] شاخ بكفها المغزل/ وجف الثدي والمحبل/ وخلف الغيم أمطار/ وفي الأعماق تحتشد «الأباطيل»/ وأبرهةٌ يناور وهو مأكول/ وموعدنا نهاراً/ حين يأتي بعد جدب الصيف أيلول (المقالح، ١٩٨٦: ٢٨٢-٢٩٣). سيف بن ذي يزن هو البطل الذي يدخل المعركة ليحقّق مصيره ومستقبل شعبه بوحده ولا يأمل في أحد أن يكشف عنه سوء العيش ومرارة الحياة. من بين أهم الشخصيات التاريخية التي تقنّع به المقالح وأنطقها بمعاناته وحزنه وآلامه، شخصية القائد اليمني سيف بن ذي يزن الذي ناضل من أجل إخراج الأحباش الغزاة من اليمن بعد أن تآمرت معهم الروم في السيطرة على اليمن واستغلاله ولّا لم يجد ما يكفيه من القوة لطرد الأحباش خرج للاستعانة بالقبائل العربية فرغّبه أحد أمراء الحيرة بالاستعانة بالفرس ولكنه فوجئ بكسرى ينثر الذهب له، فقال: ماجئت لهذا، إنّ جبال بلادي كلها ذهب ولكني جئت أطلب المدد بالعتاد والرجال ثم عاد إلى بلاده على رأس الكتائب اليمانية التي التحمت مع الأحباش وأخرجتهم ولكن سيف بن ذي يزن نال من المتاعب والاغتراب والمعاناة خلال رحلاته من أجل جمع الرجال لتحرير بلاده حتى غدا رمزاً للثائر العربي المخلّص المؤمن بقضيته (الخليل، ٢٠١٢: ١٠٦-١٠٧). فالدفاع عن أرض الوطن واجب على الجميع كما أن ابن ذي يزن ناضل الحبشة وحمير لما استولوا على اليمن وقاتلهم وحاربهم وغلبهم وأصبح رمزاً للحرية والمقاومة لكنّ سيزيف رمز يشير إلى المعاناة الإنسانية المعاصرة وإن كان سيزيف يصل بالصخرة إلى القمة ولكنه يفشل بهبوط الصخرة إلى الوادي ولكنّ شخصية سيزيف المستدعاة في هذا المقطع لا تتأرجح بين الأمل واليأس؛ لأنها وإن فشلت في مرة ولكنها في المرات القادمة لن تفشل. وعبر هذا التغيير بين الشخصيتين يكون الشاعر بصدد إثارة الحيوية والأمل في أبناء شعبه في مجابهة الأعداء. وإن هزموا مرة يجب ألّا ييأسوا، بل عليهم أن يناضلوا من جديد ودون أدنى شك إنهم الغالبون المنتصرون.

يعبّر الشاعر عن مشاعره تجاه صنعاء في قصيدة *وجه ص ن ع ا ء بين الحلم والكابوس*:

أيُّ وجهٍ أحدثُ عنه؟/ لصنعاءَ وجهان/ أربعة/ ألفُ وجه/ فصنْعاءُ خادمةٌ في بلاطِ النجاشي/ ومنسيةٌ في سجونِ الرشيد/ وضائعةٌ في بلادٍ كثيرة/ صدقَ وجهُ صنعا الذي في المنامِ

رأيتُ ملامحَه/ خارجاً – كانَ – من رحمِ اللَّيل/ هذا إذنْ وجهُ صنعاء .../ وجه التي عذَّبتْ كلَّ عشاقِها/ واستكانتْ لجلادها/ أَطلِقوا قدمي من حبالِ التشرُّد/ حين أعودُ إليها ادْفنوني على صدرِها مثخناً أو قتيلاً/ أنا بعضُ عشَّاقِها/ فاسْتيقِظي يا جماهيرَ «وادِي القرى»/ ها هيَ الآنَ تبْتسم/ الآنَ تجترحُ الرفْض/ .. والخليجُ يحدِّقُ في دهشةٍ، والنخيلُ تطلّ بأعناقِها/ علّ صنْعاءَ تخرجُ منْ رحمِ الليل/ تخرجُ منْ رحمِ الكهف/ تخرجُ منْ رحمِ الحزن/ تمنحُ أبناءَها الواقفينَ على الباب ../ والمبْعدينَ قليلاً منَ الماء/ بي ظمأٌ أقطع السنواتِ العجاف بلا مَاء .../ و«النيلُ»بيتي (المقالح، ١٩٨٦: ٥٧٤- ٥٨٦).

يوحي العنوان المقطّع تقطيعاً أفقياً إلى أن الشاعر يرى مدينة صنعاء وبشكل عام أرض الوطن مشطورة مقسمة إلى أقسام مختلفة «وجه ص ن ع ا ء» بين الحلم والكابوس. ترى المدينةُ حلم الماضي وسالف عزّها ومجدها وفي نفس الوقت ترى الكابوس والدمار والهلاك. يوضح الشاعر فيما يلي ملامح الحلم المجيد لهذه المدينة؛ حيث كان لها رفعة وعظمة في بلاط نجاشي وبالمقابل كانت منسية لاتُذكر في سجون الرشيد. وفي كفّها الشمس تتبختر في ثوبها ونخيل الجزيرة تسجد حوالي صنعاء. كما أنّ رمزية النخيل ترتبط بالانتماء القومي وليس توظيفه إلّا دفقات شعورية يدفع الشاعر بها الإحساس بالشعور القومي وإلى التفتيش عن مخرج للمحنة التي يعيشها. والمحنة هنا تتعلق بتعذيب صنعاء كلّ عشاقها، بينما ركعت أمام جلادها. تتضاعف محن الشاعر ويناشد متلقيه أن يطلقوه من التشرد ويحرّره. ولما يعود إليها، يدفنه تحت تراب صنعاء. لأنه من عشاقها وقد آل به الأمر حتى يصل إلى صنعاء بينما هو مقطوع الرأس يتحمّل غاية المحنة ويكابد. بعدما تحدث الشاعر عن محنته وآلامه، يخاطب الجماهير ليصحوا عن النوم والغفلة، لأنه صنعاء الآن ترفض الواقع ولا تتحمل الذلة والهوان أكثر من هذا. إذن يثير الشاعر مشاعر الناس للحركة والحياة. صنعاء تتحرك وتخطو خطوات واسعة لتتحرر من دائرة العبودية والاحتلال وتعطي لأبنائها الصامدين الواقفين بجانبها الماء الصافي، والنخيل أصبح محرّكاً ومحرضاً لتحقيق ما رآه الشاعر بالحلم وأخيراً يتلألأ وجه صنعاء مشرقاً منوّراً متجاوزاً الواقع السوداوي المرير رائياً أحلاماً سعيدة. يأخذ وطن الشاعر مأرب مكانه في البيت الأخير ويتوزع عنصر الماء المتنقل بالدمع والشطآن ليحيط بهذا الوطن من جانبه.

٥.٣ القومية

هناك شيء مشترك مهم بين الأدب والقومية العربية فالأدب يعتمد على الإلهام والشعور الداخلي الذي يتفاعل مع العقل والنفس والقومية العربية هي إيمان أساسه شعور داخلي، ولعلّ الأدب من الوسائل المهمة الملائمة للتعبير عن مشاعر الإنسان الداخلية خاصة تلك المشاعر المتعلقة بإدراكه لهويته وانتمائه، بل وسيلة ممتازة للتعبير عن الشعور القومي وعن روح الأمة ويرسم صورة أوضاعها (الويس، ٢٠١٥: ١٠٩).تجلت في الشعر القومي خلال فترة عارضة من السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الأولى نزعات وطنية محلية اتسمت بالحرص على إبراز كيان خاص بها نتيجة دوافع سياسية واجتماعية ونفسية كانت برغم تطرفها في بعض الأحيان ذات أثر عميق في تعميق المشاعر الوطنية ورفد الاتجاه القوميوقد تجلت عناصر القومية العربية في الشعر الحديث بإلحاح الشعراء على وحدة الأصل العربي ووحدة اللغة وماضي العرب المجيد وتاريخهم الحافل وعلى آلامهم وآمالهم المشتركة ونزوعهم الشديد نحو وحدة أقطارهم وشعورهم (دقاق، ١٩٦٣: ٤١٧-٤١٨). إنّ من أبرز الشخصيات القومية عند الشاعر هي شخصية عبدالناصر في قصيدة *فوق ضريح عبدالناصر*:

كالماء في ذاكرة النهر/ ومثل الضوء في ذاكرة الشمس/ ومثْل العطر في حدائق الورد/ يعيش بيننا/ يمنحنا الغبْطةَ/ والثورةَ عبدالناصر/ العظيم/ منْ آخر المحيط/ حتى آخر الخليج/ تورقُ الأرْضُ بهم/ وتهطل السماءُ أبناءً له/يا أيها الزعيمُ/ يا (ناصرُ)/كبْف جئْتَ للأرض/ وكيف انهمرَتْ بكَ السماءُ قائداً/ معلِّماً/ كيف استطعْتَ/ أن تكونَ وردةً/ وسيفاً يشْبه العدلَوفارساً أخضرَ لا يعرف معنى الحقْدِ/ والخصام (المقالح، ٢٠٠٤:٢/٢٧٧-٢٧٩).

إن الحركة القومية العربية بقيادة عبدالناصر وخطواته السياسية أثارت جدلاً واسعاً في الأمة العربية لتحقيق الأمل المنشود والأمنية الضائعة في الحيلولة دون تقدّم العدوّ المستعمر المشترك لكافة الدول العربية. فأقام حركة تحرير الشعب المصري ليحقّق آمال كافة الشعوب المضطهدة.يركّز عنوان القصيدة على شخصية شعبية جماهيرية قومية عربية يفخر بها العرب ومنهم الشاعر واستخدم الشاعر هذه الشخصية وشبهها بالماء في ذاكرة النهر أي لها صفاء في ذهن الشعب ومثله كالنور في حافظة الشمس وكرائحة العطر في حدائق الورد. عبدالناصر

وإن ارتحل ولكنه لا يموت بل يعيش بيننا ويجعلنا نغتبط لشخصيته وعمّت ثورته من منتهى المحيط إلى منتهى الخليج الفارسي وتورق شجرة الأرض وتثمر بواسطته. كأنّ السماء تشارك الإنسان في تحقيق مناه بحيث إنها تنزل أولاداً ومانصرين لرؤياه. ثم يخاطب الشاعر هذه الشخصية ويقول يا من صنعت أحلام الشعب قد اتسمت الجبال بهواك والبحر قد اتّحد والعصر ذو قسئة وعنوة وتفرّقت البلدان العربية وتبعثرت وهي بحاجة إلى من يلّ شملها ويوحّدها من جديد وها هو الزعيم الذي يسأله الشاعر عن أسباب كبيائه وعظمته حيث يسأله كيف أتيت إلى الأرض وكيف أنزلتْك السماء قائداً ومعلماً وكبف تمكنتَ من أن تكون وردة يشمّ طيب هواك كل من يمرّ بك وأنت كسيف يماثل العدل وفارس لا يعرف معن الضغينة والعداوة ولونك الأخضر هو لون الحياة والأمل والتفاؤل ويحمل معاني الخير والعطاء.

وفي قصيدة من تداعيات الليلة الأخيرة للمتنبي في مصر:

الشعرُ شواطئ شاحبةٌ/ وشوشةُ مصابيحٍ مطفأةٍ/ تتسلّق جدران الكون/ مرافئ يوقدها سِرداب الدّم/ أسرابُ طيورٍ صارخةٍ/ في وطن لا يمتلك الحبّ/ ولا يلد الأمطار/ ولا يصغي للشمس/ أتداوي بالشعر/ ويلٌ للشيطان/ وللباشا والحاخام/ يوم تكون القارعةُ الكبرى/ وتقول القدس صلاةً جامعةً/ وضوءاً بالماء الأحمر/ لزج/ ومريرٌ طعمُ العمر بعيداً عن صنعاء/ لزج/ ومريرٌ طعمُ العمر بعيداً عن مصر/ قال دمي للأرض وداعاً/ وكان النيل الأسمر/ يتلوّي ألماً (المقالح، ٢٠٠٤: ٢/ ٥٢٩-٥٤١).

النيل والهرم رمزان للصدق والأمانة والأصالة والوطنية. صور المتنبي الذي يستدعيها الشعراء المعاصرون هي تجربته وقلقه وبعض أبياته ورحلاته بين الشام ومصر والعراق ورحلته الأخيرة الفاجعة وهو رمز متعدد الأبعاد في القوة والضعف والقلق والثبات وكل حالة من هذه مرهونة بزاوية الرؤية عند الشعر الذي يتكئ على جانب منه رمزاً لواقع معاصر (الكركي، ١٩٨٩: ٢٢٧). ارتبطتْ شخصية المتنبي بالزمن الحاضر والتجربة الحالية للشاعر فهو يبدأ القصيدة بتشبيه الشعر بشواطئ ضئيلة وصوت مصابيح لا ضوء لها وتعلو حيطان العالم والشعر كموانئ يشعلها سرداب الدم وهو كجماعات طيور صائحة في وطن ليس له عهد بالحبّ ولا يلد الأمطار هي أمل الحياة أو الثورة وكلّ شيء تحول في نظر الشاعر وأصبح رأساً على عقب

بحيث إنّ النهر يجري خلافاً لمجراه. فكلّ الأسماء والأشياء وحتى زمن التصالح والصلوات والصفقات تحوّلتْ وانقلبتْ تماماً. فكيف أرجع إلى وطن احتُلّ ولا يملكه أبناؤه وأنا مغتربٌ بعيد عنه وأحنّ إليه وأتذكّر الذكريات واتّخذ الشعر دواء لي. هلاك أو عذاب للشيطان والحاكم والحبر اليهودي فينصبّ سوط العذاب الأليم وتصلّي القدس وتتوضّأ بالدم، والابتعاد عن صنعاء ومصر صعبٌ. ينزف دمي ويقول وداعاً لأرض الوطن والنيل يتمايل وينعطف من الوجع. تدلّ عبارة «ويلٌ للشيطان وللباشا والحاخام» على معا اتفاق *كامب ديفد* واستسلام الباشا والحكام العرب للشيطان واليهود وقبولهم الضعف والهوان والخزي لشعبهم.

٦.٣ المقاومة الفلسطينية

كانت القضية الفلسطينية التي مازلنا نعيش فصولها وآثارها المأساوية قتلاً وقصفاً ودماراً وإبادة منذ سنة **١٩٤٨** حتى يومنا الحاضر هي المحرك الأول للهمم العربية والباعث الرئيسي إلى كلّ تغيير حصل في شتى أنحاء الأمة العربية. فلقد شعر الإنسان العربي عند ضياع فلسطين وطرد شعبها من دياره وممتلكاته بقوة الضربة التي قضت على أهم شيء يمثل إنسانيته ألا وهو عنصر الكرامة والشرف والعزة التي داسته أقدام الهمجية عندما مرّقت في التراب تاريخ أمتنا المشرق والحافل بالنصر والنضال والدفاع عن الحق والإنسان (قميحة،١٩٨١: **٢٠٥**). لم يكن المقالح بعيداً عن معالجة القضية الفلسطينية في شعره حيث يقول في قصيدة *مكانك قف*، المهداة إلى الشاعر الفلسطيني سميح القاسم:

مكانكَ/ لا تبْرح الأرْض/ سمر عيونك .. أقْدامكالجاريات/ عليها .. وأهْدابك الذابلات/ إذا لم يكنْ لك بيت هناك/ وكوْخك أصبحَ مأْوى لخيل الغزاة/ تحسّس على الأرْض قبراً/ ليأويک، يأوي رفاتك عنْدَ الممات/ مكانَك، سمر خُطاك/ وإنْ هدّدوك/ وإنْ عذّبوك/ وإن مزّقوك/ فلا تبْرحِ الأَرض، لا تغتربْ .. لنْ تخور/ عظامُك إنْ سلخوا لحمَها/ سوفَ تبقَى/ جُذوراً بظلِّ القُبور/ وإنْ أحرَقُوها تظلُّ رماداً بوجهِ الصُّخور/ وإنْ أنْتَ غادرتَ أرضَك/ متَّ غريباً/ ستبْقَى معرىً تنْفر عينيك كلُّ الطيور/ وتسْخرُ منْكَ النّجوم/ وتسْخرُ منْك العصور/ وحينَ تمرّ الصَّبايا على جثَّةٍ فوْقَ وحلِ الطَّريق/ ستسْألُ جثةُ مَنْ هذه ..؟/

فتجيبُ الرِّياح/ لآخرِ جنْدِ الحمى، للرَّفيق/ تخلى عن الأرض خافِ اشْتعال الحريق (المقالح، ١٩٨٦: ٤٧-٤٩)

بما أن الاستعمار الإسرائيلي لم ينته فمازالت الأرض محتلة ومفتاح القصيدة أي العنوان تكوّن من ثلاث كلمات: اسم وضمير وفعل امر. إذن يطرح العنوان ثنائية الأرض والصمود. إن المكان هو أرض فلسطين المحتلة وتكرّر أربع مرات ليدلّ على أن تركيز الشاعر عليه، وضمير (ك)، وإن كان مرجعه سميح القاسم، لأن القصيدة مهداة إليه ولكن في معناه الأشمل، هو يعني كلّ مناضل فلسطيني يعاني ويكابد ويناضل الكيان الغاشم ويسعى للخروج من نير الاحتلال، أما فعل الأمر (قف) هو يعني الصمود والبقاء والدوام وعدم التخلي عن المسؤولية. يستمر الشاعر في الإدلاء بدلوه لتبرير الصمود والبقاء قائلاً للمخاطب: وإن لا تملك بيتاً هناك أو قد أصبح بيتك الصغير ملجأً للمحتلين فخذ قبراً على الأرض كملاذ لك. لأنك وإن متّ ودُفنتَ في القبر ولكنّ القبر يتحوّل إلى رمز يضيء الطريق كمنارة للأجيال القادمة كما أنه يحمي جثمانك من سوء أو تعرض. يكمل الشاعر المشوار ويقول: في حالة التهديد والتعذيب والتمزيق، فأنت عليك أن تصمد ولاتترك الأرض ولا تغترب؛ لأن الاغتراب يتسبب في احتدام الأمر ويجعل العدو يتجرأ أكثر لأنه لا يرى من يعارضه ويقابله. فيما يلي يرسم الشاعر ظروفاً أصعب من هذا للمخاطب، بحيث إن قتلوك ونزعوا لحمك عن عظامك فأنت ستقاوم. حتى وإن متَّ وأحرقوا قبرك فمازال رمادك يثير الحركية والحيوية. وبالمقابل إذا تركت الأرض فأنت تموت غريباً والطيور التي تشاق إلى الحرية وتطير في سماء الأرض تكره عينيك وتهرب منك والنجوم التي تلمع وتتلألأ لتشرق في ظلام الظلم والاستعمار تستهزئك وتعاملك بسخرية والأزمنة والقرون أيضاً تسخرمنك، ولما يمر الصغار بجانب قبرك يتساءلون لمن هذا القبر؟ أي أنت تموت ولا يذكرك أحدٌ كأنك لم تكن حياً وا مشيتَ على أرض الوطن وتكون نسياً منسياً. فالرياح تجيبهم إنه هو الهارب الذي تخلى عن مسؤوليته وهرب وذُعر من إضرام نار في وجه العدوّ وسامحه.ويستمرّ الشاعر في نفس القصيدة قائلاً:

مكانكَ/ جوعك زاد البطولة/ وموتك زيت العيون/ وصوتك من خلف أسلاكهم يصنع الفجر/ يصنع حلم الرجو/ ويكتب ما كان بالأمس، ما في غد سيكون/ بقاؤك في السجن

حرية للعبيد/ ومحرقة للسجون/ و«فدوى» هناك و«توفيق» والآخرون/ هناك معا تحتسون الظلام/ تنيرون ليل الحقول الحزينة/ تشدون رعب المدينة/ تغنون للساهرين/ تغنون للعائدين/ تداعب أصواتكم وجنات الصغار/ وتحرس أجداث آبائنا/ وتفتح نافذة في سواد الجدار/ مكانك/ قف صامداً يا سميح/ ولو حمّلوك على الصليب/ ولو طلبوا منك.. تمشي على الشوك/ أن تصعد الجلجلة/ وفيك أعادوا عذاب المسيح/ وكلّ مخازيهم المخجلة/ فإنك أقوى/ وإنك أبقى/ لأنك أنت .. هناك/ مكانك لم تبرح الأرض/ سمرت فيها خطاك/ و«فدوى» وكلّ رفاق الطريق/ هناك ... وأحلامنا .. في الانتظار الشروق/ سيأتي الشروق/ ويفترش النور أحداقنا بعد ليل عميق/ ويمسح ما خلّف الروم بعد انطفاء الحريق (المقالح، ١٩٨٦: ٤٩-٥٢).

يناشد الشاعر المخاطب بالنهوض والوقوف في نفس المكان. الجوع أو الحرمان من الطعام والمأكول يزيد في القدرة والبطولة والرحيل بصالح العيون لرؤية المستقبل والصوت يأتي كمكوّن للفجر وصانع للحلم والرجاء والأمل ويكتب ما حدث آنفاً للآتي والمستقبل وهنا مفارقة رائعة. لأنّ الصوت لا يكتب بل الصوت يسمع. فصوّر الشاعر الصوت قلماً يرسم كلّ ما حدث فيما مضى لمن يكون في المستقبل. إن الدوام في السجن يعتبر حرية للعبيد، بل هو أقوى من الرصاص يحرق الزنازن والسجون وكافة المقاومين من الشعراء وغيرهم كفدوى وتوفيق آخرين يتناولون الظلام والحالوك جرعة بعد جرعة ويضيئون ليالي الحقول المليئة بالأحزان والآلام وتغنون للراجعين من ساحات المعارك وتحفظ قبور أجدادنا وتشق نافذة في ظلام الحائط لرؤية الخارج. عليك يا سميح أن تكون صامداً وراسخاً وإن صلبوك وعذّبوك بشتى أنواع التبكيت كالمسيح وأرادوا منك أن تتحرك على الأشواك وإن حمّلوك كلّ أنواع المخازي المعيبة والمخجلة فإنك أقوى وأعزّ وأعلى وتذهب جهودهم جفاء ولن يقطفوا زهرة ولاسنبلة. عليك يا سميح أن تبقى صامداً لتصنع ثورة وانتفاضة بل حريقاً يضرم كل السارقين للبد والمحتلين للأرض وصنعوا مهزلة من الأباطيل تدلّ على أن أرض فلسطين لليهود. فياسميح لا تترك الأرض وقاوِم ونحن ننتظر الفجر وشروق الأمل والرجاء بحيث ينشر النور والضوء سواد عيوننا ويطفئ نار الدمار والخراب التي تركها الروم على أرضنا. إنّ المقاومة حضور أمام فرض الغياب وبقاء أمام محاولات الإلغاء ووجود حيال الدفع باتجاه العدم

وسعي للانتصار من داخل دائرة الهزيمة وهي نفسية وجسدية وثقافية واقتصادية ووطنية وقومية وإنسانية (زيتون، ٢٠٠١: ٥٠). تكون فدوى في هذه السطور شاعرة تجاري العصر وتأخذ الشعر أداة لمجابهة الاحتلال ووظّفها الشاعر لتبوح بما في الواقع المعيش ويشير الشاعر من خلالها وبجانب الشعراء المقاومين الآخرين إلى قضية حيوية أشد حساسية للعرب وللمسلمين وهي قضية فلسطين المحتلة.

لم يكن الشاعر اللامبالياً بالنسبة إلى الانتفاضة، فنراه في قصيدة بهذا العنوان يقول:

إنه الطفلُ سيدُنا/ بالدَّم المتوهِّجِ/ يكتبُ آخرَ فصلٍ/ من السيرةِ الدَّمويةِ للاحتلال./ بين مهدٍ ولحدٍ/ بِوُسعِ الطفولةِ/ أن تحملَ الأرضَ/ أن تتحدّى المحالْ/ وأن يكتبَ الدَّمُ سيرتَها/ ويلامسَ دهشتَها ../ أن يقولَ السؤالْ (المقالح، ٢٠٠٤: ٣/ ٦٩٣).

لعلّ هذه القصيدة من أجمل القصائد التي تناول الشاعر فيها المقاومة الفلسطينية؛ ذلك لأنّ البطل في هذه القصيدة هو الطفل الذي لا يرى المحتلّ شأنا له يذكر ولكنّه هو سيد الشعب الفلسطيني المقاوم الذي يسجّل بدمه المتلألأ آخر فصل من كتاب الاحتلال الدمويّ بين مهد وهو في سن الطفولة واللحد أي عند الموت وهو بمدى طفولته وصغره يحدد مصير الأرض ويتمكّن من أن تتحدّى المستحيل وأن يسم الدم سيرتها ويتلمّس احتيارها وأن يطرح السؤال. قد يكون هذا السؤال عن سبب هذا الاحتلال والخونة الذين صمتوا لم يكن لديهم أيّ إحساس بالمسؤلية. أو قد يكون سؤاله عن هذا المصير الدمويّ الممزوج بالدهشة والحيرة. هو طفل يجب أن يلعب ويقوم بألعاب صبيانية ولكنه يترك كلّ شيء ويقوم بتحدّي المحال وهذا مما يصعب على الطفل فهمها وحفظها ترديدها أو لا يتّسع له قاموسه اللغويّ أو الإدراكي.

وفي قصيدة *قصاص*:

الفضاءاتُ تمطرُ ماءً/ وضوءاً على الأرضِ،/ لكنها في فلسطينَ/ تمطرُ ناراً/ وموتاً/ وأزمنةً من رصاصْ ../ فمتى/ يا بلاداً تنامُ على الخوفِ،/ مثقلةً بالضحايا/ وبالنفطِ،/ سوفَ يكونُ القصاصْ؟ (المقالح، ٢٠٠٤: ٣/٦٩٠).

يشكو الشاعر في هذه القصيدة مما تعانيه فلسطين. فمن الواضح أن السماء تنزل مطراً وتصبّ ضوءاً على الأرض ولكنّ الأمر في فلسطين يختلف تماماً حيث السماء تمطر ناراً

وحتفاً وأزمنة متواصلة من رصاص. هنا يخاطب الشاعر هذا الأرض قائلاً: أنتِ أرض تنام على الخوف والرعب وسقط كثير من الضحايا على ترابك، فمتى تثأر الذين تسببوا في نشوء هذا الخوف وعدم الاستقرار ومتى تعاقبهم في مرأى ومسمع الجميع. فكأن الشاعر قد يسعى إلى تحقيق ذلك الحلم المنشود الذي ورثه من آبائه وأجداده كأنّه قد طال عليه الأمد فيطرح السؤال عن موعد القصاص في العبارة الأخيرة لتعمّ السعادة ويعيش أبناء الوطن في أمن وأمان دون خوف من الأفاعي المحتلّين وبهذا السؤال يستنهض الشاعر الهمم ويرسل هذه الرسالة كي يستيقظ الجميع من نومهم العميق ويميزوا بين العدوّ والصديق ويحرّروا القدس من الغاصبين ويعيدوا لها سابق عزّها ومجدها وكرامتها وعلى الجميع أن يقوموا بالقصاص لأنّ فيه حياة لأبناء الشعب الفلسطيني.

٤. النتائج

توصل المقال مما تقدم إلى أنّ:

١. إنّ المقالح من أبرز شعراء اليمن المعاصرين الذين عاشوا الواقع المرير لأبناء شعبهم والأمة العربية وناضلوا وتحمّلوا في سبيل تحرير الوطن من نير الاستعمار والاحتلال كافّة أنواع الحرمان والاغتراب والابتعاد عن الوطن ولكنهم لم يرضخوا أمام الجبابرة والمستعمرين. تجلّت المثورة والمقاومة في شعره في قالب الثورة الوطنية والقضايا الاجتماعية والسياسية وشعر الشهيد ومضمون الاستشهاد النضال والكفاح والنظرة القومية والمقاومة الفلسطينية. فالشاعر المقالح في طليعة الشعراء اليمنيين الذي دفع ثمن كلمته غالياً وأدى حق الوطن من الكفاح والمثابرة والدعوة إلى الحرية والعدالة والكرامة الإنسانية وأنشد شعر الرحولة، فهو الذي يتعذب ويمارس مهامّه الإنسانية من أجل البعث والتغيير والتجدد. من جانب آخر ليس شعر المقالح تعبيراً عن قضية فردية بل هو تعبير عن قضايا الإنسان والواقع اليمنيّ وكان شعره تحريضاً ثورياً على طلب العدل ورفع نير الظلم والشاعر يحرص على تجسيم الوقائع والأحداث لإحداث تأثير أبرز وأكبر على المخاطب والقارئ.فقام المقالح في شعره المقارم بانتهاج سبل متنوعة تكفل له استرداد عافيته والأمن لبلده وتبعثر الحيوية والحركية والمعنوية بين أبناء شعبه وتضمن لهم الدوام

والبقاء كتوظيف الشخصيات التراثية ورموز الصبر والصمود، كالنبيينِ يوسف وأيوب ومن الرموز التراثية في شعره سيف بن ذي يزن، كما استدعى شخصية جمال عبدالناصر ليتفاعل مع كافة هؤلاء الشخصيات ويربطهم بقضاياه وقضايا عصره ويتخذهم كمادة تراثية تعطي إنتاجاً شعرياً أكثر غزارة وأصالة وشمولاً، كما أنّ توظيف هذه الرموز وهؤلاء الأشخاص له صلة بانتماء الشاعر الفكري والدينيّ.

٢. إن الشهيد والاستشهاد من أبرز وأهم وأوسع المجالات التي تناوله شعراء المقاومة؛ ذلك لأن الشهادة تقترن بالجهاد، وهي بمثابة الرأس من جسد الشعب المقاوم؛ بحيث إنّ دم الشهيد لا يذهب هدراً. الشهيد عند المقالح رمزٌ من رموز الكفاح والمقاومة الوطنية، فبواسطة التذكير بأمجاد الشهداء وبطولاتهم، يثير الشاعر الأمل والتفاؤل والبهجة في قلوب المقاتلين؛ فالشهيد عنده هو الطاقة الخفية التي تجعل للشعب الخلود والمجد، وتظله بسحائب الخير والرحمة والرخاء، وهو الذي يرفع راية الجهاد والعزّ والشرف والفخر والكرامة مكافحاً ويبذل قصاري جهده، مستميتاً في نشر الحبّ للوطن، وأنه أدرك بمنتهي الدقة أن الانسان الذي لا وطن له، لا كرامة له.

٣. فيما يتعلّق بالنظرة القومية في شعر الشاعر، كانت نظرة المقالح المقاوِمة لم تختزل في أرض الوطن والمواطن اليمني، بل كان يمتلك نظرة شمولية جامعة تناولت البلدان العربية بحيث إنه لم ينس القضية الفسطينية وهموم الشعب الفسطيني وتطرق في قصائد كثيرة إلى الاحتلال الصهيوني ودعا إلى استنهاض الأمة العربية والوحدة ويحاول بكل جهوده وإمكانته أن يفجر في المجتمع حرارة الحياة وهو ثائر على هذا الواقع المتحجر، وإن كان في بعض الأحيان يرى نفسه عاجزاً عن التأثير فيه، فيتخذ الصمت سلاحاً صارماً وقاطعاً أقوى من الرصاص.

٤. تحتلّ المقاومة الفلسطينية قسماً من محاور المقاومة لدى الشاعر، بحيث إنه سعى إلى أن يثير الأمل في القارئ ليبعث فيه الصمود والبقاء والدوام وعدم التخلي عن المسؤولية. ففي منظوره يفترض على كلّ مناضل فلسطيني يعاني ويكابد ويناضل الكيان الغاشم ويسعي للخروج من نير الاحتلال كما أنه رأى الغتراب واحداً من أساليب الشكوى ورفض الواقع.

الهوامش

١. عشتار رمزية العودة والخلاص وهي تنزل إلى القبر بحثاً عن الإله الزوج قصد إعادته إلى الحياة.

٢. نبات منبّه يزرع في اليمن والحبشة، يمضغ ويخزَّن في الفم ويستخرج من تقطير ثماره مشروب كحوليّ شديد الوقع على الأعصاب.

٣. تَنغُو: رقصة منشأها أميركا اللاتينية (إسبانية).

٤. فيديريكو لوركا شاعر الثورة والجمهورية الإسبانية قتله المرتزقة بالقرب من غرناطة عام ١٩٣٦.

٥. بنلوب بطلة الأوديسة انتظرت عودة زوجها التائه «عوليس» حتى شاخت، ورفضت كل الأزواج.

المصادر

أبوجبين، عطا محمد (٢٠٠٤م). **شعراء الجيل الغاضب**، ط١،عمان: دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة.

إسماعيل، عزالدين (٢٠٠٧م). **الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية**، ط١، بيروت: دار العودة.

إسماعيل، عزالدين (٢٠٠٦م). **كلّ الطرق تؤدّي إلى الشعر**، ط١، بيروت: الدار العربية للموسوعات.

جرداق، جورج (١٣٧٥ش). **روائع نهج البلاغة**، ط٢، قم: مركز الغدير للدراسات الإسلامية.

جمعة، حسين (٢٠١٤م). **ثقافة المقاومة: إعادة بناء الذات العربية**، د.ط، دمشق:اتحاد الكتاب العرب.

الخليل، سمير (٢٠١٢م).**علاقات الحضور والغياب في شعرية النص الأدبي**، ط٢، سوريا: تموز للطباعة والنشر والتوزيع.

دقاق، عمر (١٩٦٣م). **الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث**، ط٢،حلب: مكتبة الشرق.

زيتون، علي(٢٠٠١م). **النص الشعري المقاوم في لبنان، البنية والدلالة**، ط١، بيروت: اتحاد الكتاب اللبنانيين.

سالم، حلمي (٢٠٠٥م). **الحداثة أخت التسامح**، د.ط، القاهرة: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان.

علي، محمد جواد (٢٠١٧م). **مسارات الخطاب الشعريّ، التجربة والثقافة والرؤية**، ط١، عمان: دار غيداء للنشر والتوزيع.

قميحة، محمد مفيد (١٩٨١م). **الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر**، ط١، بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة.

الكركي، خالد (١٩٨٩م). **الرموز التراثية في الشعر العربي الحديث**، ط١،بيروت: دار الجيل.

كنفاني، غسان (١٩٦٨م). **الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال**، ط١، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

لوحيشي، ناصر (٢٠١١م). **الرمز في الشعر العربي**،ط١، إربد_ الأردن: عالم الكتب الحديث.

مبروك، مراد عبدالرحمن (١٩٩٣م). **الدم وثنائية الدلالة في القصيدة العربية المعاصرة**، د.ط، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

مصطفى، أحمد زعتر (١٩٩٤م). **كائنات وترية– قراءات إبداعية للشعر العربي**، د.ط، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

المقالح، عبدالعزيز (١٩٨٦م). **الأعمال الشعرية الكاملة**، د.ط، بيروت: دار العودة.

المقالح، عبدالعزيز (٢٠٠٤م). **الأعمال الشعرية الكاملة**، ٣ مجلدات، د.ط، صنعاء: من إصدارات وزارة الثقافة والسياحة.

المقالح، عبدالعزيز (١٩٩٢م). **صدمة الحجارة**، د.ط، بيروت: دار الآداب.

نشاوي، نسيب (١٩٨٤م). **مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر**، د.ط، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

وازن، عبده (٢٠٠٤م). **مقدمة الأعمال الشعرية الكاملة لعبدالعزيز المقالح**،د.ط، صنعاء: من إصدارات وزارة الثقافة والسياحة.

الورقي، سعيد (٢٠١٠م). **الشعر العربي المعاصر وذائقة التلقي**، د.ط، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

الويس، مولود مرعي (٢٠١٥م). **عالم حيدر محمود الشعري خطيب الحياة وسحر الإبداع**، ط١، عمان: دار غيداء للنشر والتوزيع.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی